

الفصل الأول

الفلسفة الطبيعية

يبدو أن الإنسان كان يخشى منذ فجر التاريخ أن يواجه نفسه التي بين جنبيه وكان يعلم أن الاقتراب من العالم وإثارة الأسئلة حوله أهون عليه من الدنو من تلك النفس ومن الدخول في أعماقها بهدف تحليلها والتعرف على ملكاته الإدراكية المختلفة ومستوياتها المتباينة.

ولهذا كان أول سؤال طرحه الإنسان لفهم العلاقة الفكرية بينه وبين الكون هو السؤال التالي:

ما أصل هذا العالم؟ بمعنى ما هي المادة الأولية التي نشأ منها هذا العالم؟ وكيف تفسر التغييرات التي تحدث في الطبيعة ابتداءً من هذه المادة الأولى؟

كان طرح الإنسان لهذا السؤال على هذا النحو بمثابة التجربة الفلسفية الأولى التي مرت بها الإنسانية وهي تخطو خطواتها الأولى نحو التفلسف، في فجر الفلسفة اليونانية إبان القرن السادس قبل الميلاد وهي تجربة نستطيع أن نطلق عليها اسم «الفلسفة الطبيعية» باعتبار أنها تتناول الطبيعة: الكون أو العالم، وأصلها. وقد قدم هذه التجربة رجال المدرسة التي عرفت في تاريخ الفلسفة باسم المدرسة الأيونية، وعلى رأسها «طاليس».

فقد ذهب «طاليس» الذي يتفق المؤرخون على النظر إليه على أنه أول فيلسوف قال إن المادة الأولى التي نشأ منها العالم هي العنصر الرطب أو الماء، وذلك لأن الماء أصل كل ما في الكون، ولأنها عنصر لازم لكل شيء حي، ولجميع التغييرات والاستحالات التي تجرى في الكون، ولاسيما تلك التي تجرى في البيئة الرطبة، ورأى «أنكسيمانس» أن المادة الأولى للعالم إنما هي الهواء فهو الجوهر الأول لأنه أكثر قدرة على الانتشار والنفوذ في الأشياء من الماء، لأنه هو العنصر اللازم للتنفس وللحياة، ولأن كل التغييرات التي تحدث في الكون إنما تتم عن طريق تكاثف الهواء أو تخلخله وكان للفيلسوف «هيراقليطس» رأى ثالث فقال إن الجوهر الأول الذي نشأ منه الكون إنما هو النار، وهذه النار ليست فقط النار المحسوسة التي هي مصدر الضوء والحرارة والطاقة بجميع أنواعها وأساس كل

التغيرات التي تحدث في الكون ويتحول فيها الماء إلى أبخرة يحملها الهواء والأعاصير ثم ما تلبث أن يتحول إلى ماء جديد يأتي من السحب وإلى أرض جديدة عندما ينحسر الماء عنها ويذهب إلى البحار، النار عند «هيراقليطس» ليست تلك النار فقط، بل هي هذه النار المعنوية التي تشتعل في العقول والنفوس والقلوب وتكون مصدرا لكل طاقات الإنسان وإبداعاته وهي قبس أو نفحة من «اللوعوس» أو «العقل الإلهي». وهي الشعلة التي يحملها الإنسان معه دائما، ويظل قابضا عليها لا تسقط من يده إلا عند الموت.

ولعلنا نكون قد لاحظنا هنا أن «هيراقليطس» بالرغم من أنه فيلسوف طبيعي فإن حديثه عن المادة الأولى التي اختارها لتكون أصلا للكون وهي النار ليس بالحديث المادي الصرف. وهذا القول يصدق على كل الفلاسفة الطبيعيين. فهم طبيعيون حقا لكن المادة الأولى عندهم تتصف بالحياة، فهم أصحاب المادة - حياة، ولهذا فإن طاليس يتحدث عن الماء أو العنصر الرطب ويقول إن له نفسا، لكن هذه النفس ليست روحية تماما بل لها قوة ساذجة للجذب والحركة شبيهة بقوة المغناطيس. و «أنكسيمانس» في حديثه عن الهواء يطبق تلك النزعة الحيوية في النظر إلى المادة فيوحد بين الهواء وبين النفس الكونية الشائعة في الكون.

وقد أدى اهتمام هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين بالمادة الأولى التي نشأ عنها الكون إلى تفسير ظاهرة أخرى في الكون هي ظاهرة التغير. وقد أرجعها «طاليس» إلى الماء و «أنكسيمانس» إلى الهواء و«هيراقليطس» إلى النار. لكن فيلسوفاً رابعاً من هؤلاء الطبيعيين هو الفيلسوف «أنكسيماندروس» استوقفته هذه الظاهرة بصفة خاصة وقال في تفسيرها إنها ترجع إلى مبدأ واحد هو «اللامتناهي» أو التغير اللامتناهي وأطلق عليه اسم «الاببيرون» وهو شبيه بالدوامة الخالدة التي تجعل الكون كله في تطور وتغير دائمين. يفنى عالم لينشأ عن فناءه أو موته ميلاد عالم آخر، ويتولد على هذا النحو عدد لا نهاية له من الأكوان، ينفصل بعضها عن بعض ويفسر لنا هذا الانفصال التدريجي ظهور الأحياء ابتداء من الأسماك حتى الإنسان. وكانت هذه الأقوال إرهابا أو تمهيدا للقول بنظريات التطور فيما بعد، ويشتم منها نفحات من «التعادلية» التي تسيطر على الكون وتجعله دائما في حالة من التوازن لا يطغى فيها جنس من المخلوقات على جنس آخر، بل تظل جميع الأجناس وجميع المخلوقات ضرب من العدالة الكونية الإلهية.

لكن بالرغم من أن «أنكسيماندروس» لم يتوقف عند مادة أولى بعينها، وآثر أن يتحدث عن مبدأ للكون نستطيع أن نصفه بأنه «فكرة» أو بأنه مبدأ عقلي هو الأبيرون، فإن هذا المبدأ عنده هو مبدأ طبيعي وعلة مادية أولا وأخيرا. ولهذا أجمع مؤرخو الفلسفة على أن «أنكسيماندروس» واحد من الفلاسفة الطبيعيين، وإنه لم يشذ عن النظر إلى مادته الأولى على أنها مادة - حية، شأنه في ذلك شأن زملائه الطبيعيين. وذلك لأنه وصف اللامتناهي بأنه الله الحي، أو الإله الذي تشيع فيه الحياة.

ومن الطبيعي أن يؤدي اهتمام هؤلاء الفلاسفة بظاهرة التغير وتفسيره، والقول بشيوع نظرة حيوية في الكون بأسره تجعله شبيها بالكائن الحي في ميلاده وحياته ونموه إلى اهتمام فلاسفة آخرين بظاهرة الثبات والاستقرار في الكون. هكذا كانت الفلسفة دائما عبر تاريخها وستظل على هذا النحو: اتجاه إلى فكرة معينة يعقبه توجه إلى فكرة أخرى مناقضة أو معارضة لها. وقد اهتم بهذا الثبات الكوني رجال مدرسة أخرى ظهرت في فجر الفلسفة اليونانية هي المدرسة الإيلية، وعلى رأسهم بارمنيدس وزينون ومليسيوس.

وإذا كان مدار بحث الفلاسفة السابقين هو الطبيعة فإن بارمنيدس كان أول الفلاسفة الذين وجهوا عنايتهم نحو البحث في الوجود.

ما هو الوجود؟ الوجود ليس هو عالم الكثرة الحسية المتغيرة، إذ إن هذا العالم هو بالأحرى ما نستطيع أن نطلق عليه اسم اللاوجود، وأن نسمى معرفتنا له بالمعرفة الظنية، أما الوجود فهو الواحد الثابت اللانهائي، وهو الملاء المحض، والكمال المطلق، وهو أيضا المعرفة اليقينية. ولأول مرة في تاريخ الفلسفة توضع على مسرح الحياة الفكرية كلمة «الوجود» بدلا من «الطبيعة» وكان ذلك على - بارمنيدس. ووضعت إلى جانبها كلمة أخرى هي كلمة «الفكر»، وقد وحد الفيلسوف بين الفكر والوجود، لا بمعنى أنه أرجع الوجود إلى الفكرة الذهنية أو التصوري الذهني عنه، كما سلاحظ بعد هذا في تطور الفكر الغربي، بل بمعنى إنه لاحظ إننا نلتقي بصفات الثبات والوحدة في كل من عالم الوجود وعالم الفكر وبهذا الاعتبار فإنهما متماثلان. والوجود عند «بارمنيدس» هو وحده الموجود وهو وحدة اليقين. وكذلك الفكر، أما اللاوجود فهو غير موجود وهو الظن، وليس للإنسان أن يبحث في تطور الوجود إلى اللاوجود أو «اشتقاق» الكثرة عن الوحدة، وليس له أن يبحث في عكس ذلك، وليس له أيضا أن يبحث في الحركة لأنها انتقال من الوجود إلى اللاوجود

أو العكس. وهذا بحث مرفوض بالنسبة إلى «بارمنيدس» إذ لا وجود لديه إلا للوجود. وأيضا فإن الإنسان لا يصح له أن يعتمد إلا على عقله فقط في معرفته للعالم، وذلك لأن المعرفة التي تأتي عن هذا الطريق معرفة تتصف بالصدق واليقين. أما المعرفة التي تأتيه عن طريق الحواس والإدراك الحسى فتتصف على العكس من ذلك بالتناقض.

وإلى مثل هذا التوجه الذى التقينا به عند الإيليين فى الابتعاد عن الموجودات المادية المحسوسة وفى التوقف عن البحث فى الجوهر المادى الأول كان توجه رجال مدرسة أخرى هى المدرسة «الفيثاغورية» الذين دفعهم اهتمامهم بالرياضيات إلى القول بأن مظاهر التناسب والنظام والانسجام التى نلاحظها فى عالم الرياضيات الزاخر بالأعداد والأشكال الهندسية تشبه ما يسود الكون من تناسب ونظام وانسجام بين أجزائه، وبالإضافة إلى هذا، فإننا إذا وجهنا أنظارنا إلى الأشكال الهندسية سنجد أن الخط هو مجموعة من النقاط، وهى وحدات، وبالمثل، فإن الأشياء المادية كذلك مجموعة من الوحدات، والعدد واحد هو الأصل فى جميع الأعداد وفى جميع الأشياء المادية على السواء. لهذا ذهب «الفيثاغوريون» إلى أن التشابه القائم بين المبادئ الرياضية وأهمها الأعداد، وبين سائر الكائنات الموجودة فى الطبيعة يفوق التشابه القائم بين هذه الأخيرة وبين الماء أو الهواء أو النار فالأعداد إذن تصلح لأن تكون مبدأ وأصلاً للأشياء.

ومن ناحية ثانية لاحظ الفيثاغوريون أننا لو أرجعنا جميع الكائنات إلى مادة واحدة على نحو ما أراد الفلاسفة الطبيعيون، فكيف سيتسنى لنا التمييز بين بعضها والبعض الآخر؟ وما الذى سيحدد الصورة الخاصة بكل نوع منها؟ إننا إذا أردنا حقا أن نقف على مصدر الاختلاف والتمايز فيما بين الأشياء المادية فعلينا أن نلتفت إلى الأنغام الموسيقية. فالأنغام تختلف فيما بينها بحسب اختلاف طول الأوتار، والطول يخضع للقياس والعدد. إذن فالأعداد لا تمثل فقط مصدر التشابه القائم بين الأشياء المادية ومبدأ وحدتها، بل تمثل كذلك مصدر اختلافها وتمايزها.

العالم كله إذن عدد ونغم، وهكذا كان يقول فيثاغورث فى شعاره المشهور، ومما لاحظته الفيثاغوريون كذلك أن التضاد بين العدد الفردى والعدد الزوجى فى دنيا الأعداد هو الأساس فى سلسلة الأضداد التى تسود العالم بين الواحد والكثير، والمحدود واللامحدود، والمذكر والمؤنث، والثابت والمتحرك، والنور والظلمة، والخير والشر ... إلخ ولكن تظل الوحدة

أو يظل العدد واحد هو الأصل دائماً في كل ثنائية: فالواحدة هي الذرة الأولى. ومنها صدرت الأعداد. ومن الأعداد النقط. ومن النقط الخطوط. ومن الخطوط المسطحات. ومن المسطحات المجسمات ومن المجسمات جميع الأجسام المحسوسة، وعناصرها الأربعة التي هي الماء والنار والهواء والتراب.

وابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد ظهر في بلاد اليونان اتجاه آخر يعد هو أيضاً ابتعاد عن تفسير أصل الكون بالرجوع إلى مبدأ واحد فقط، وقد أسس هذا الاتجاه الفيلسوف «أنبادوقليس» الذي عدل عن القول بمبدأ أو عنصر واحد، وقال بالعناصر الأربعة مجتمعة: النار والهواء والأرض (التراب) والماء. وأرجع التغيرات التي نشاهدها في الكون إلى قوتين أو مبدئين هما: مبدأ الائتلاف أو الحب ومبدأ الانفصال أو الكراهية، فالحب يجمع ويجعل الكل مندمجاً متماسكاً سعيداً. أما الكره فهو مفرق هادم للتماسك. وعندما أراد «أنبادوقليس» أن يعلل سيادة أو غلبة الحب على الكره أو الكراهية أو سيادة العكس نجده يقول إن هذا يحدث في دورات متعاقبة. فما أن تكتب السيادة لمبدأ الحب في دورة زمانية معينة يسود فيها اللئام حتى يتدخل مبدأ الكراهية ليطالب بحقوقه فيسود الانفصال.. وهكذا نجد أنفسنا هنا أمام مبدئين عاطفيين أو وجدانيين آثر. «أنبادوقليس» أن يفسر بهما تغيرات الكون بالإضافة إلى قوله بالعناصر الأربعة مجتمعة لا بعنصر واحد فقط. أما عن ظهور الكائنات الحية في الكون فقد أرجعه «أنبادوقليس» إلى أثر البيئة والانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح وكل هذا يتم عن طريق التطور الآلي يعتمد على عمليتي الائتلاف والانفصال. وهو في هذا يعد المبشر بآراء أصحاب نظرية التطور.

والفيلسوف «إنكساغوراس» بالرغم من اهتمامه بالطبيعة كسائر الفلاسفة الذين تحدثنا عنهم حتى الآن فإنه يعد هو الآخر من الذين عدلوا عن تفسير التغيرات التي في الكون باللجوء إلى عنصر أو مبدأ مادي واحد. إلا إنه لم يقتنع بمبدأ «أنبادوقليس» في تفسير التحولات التي نشاهدها في الكون وهما مبدأ الائتلاف ومبدأ الانفصال اللذين قلنا عنهما إنهما مبدآن وجدانيان. وذهب هو على العكس من ذلك إلى وجود قوة عاقلة في الكون أسماها العقل أو «النوس» وهو يمثل عنده أصفى الأشياء وأدقها، حتى أنه يخترق جميع الموجودات كما لو كان نفساً روحياً منتشراً فيها. وقال عنه إنه القوة التي تثير الحركة في الكون، وهو الذي يؤلف ويفرق بين العناصر المختلفة. وإن كان هذا كله يتم بطريقة

آلية محضة، أما عن تكون العناصر و بروز الكيفيات المختلفة التي تحدد أن هذا الشيء هو برتقالة مثلا وليس تفاحة، فإن مبدأ امتزاج العناصر الأربعة الذي قال به «أنبادوقليس» لا يفسر لنا هذا، بل يفسره مبدأ آخر هو أن الأجسام بالرغم من قابليتها للقسمة فإننا لا بد أن نصل في تقسيمنا لها إلى أجزاء في غاية الصغر لا يمكن أن تنقسم إلى أجزاء أصغر منها (وهي التي أطلق عليها الفلاسفة الإسلاميون بعد هذا الأجزاء التي لا تتجزأ). وهذه الأجزاء التي لا تتجزأ تشبه البذور ويفسر لنا وجودها في جسم معين انتماءه إلى هذا النوع أو ذلك. وقد أطلق أرسطو اسم المتشابهات أو «الهوميوميريات» على هذه البذور الصغيرة التي تفسر لنا تسمية الأشياء التي تنتمي إلى نوع معين وعدم قبول تحول هذا النوع إلى نوع آخر. لكن علينا أن نلاحظ أن الفلاسفة الطبيعيين اليونان الذين تحدثنا عنهم حتى الآن في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بالرغم من توجههم الوحيد نحو الطبيعة أو الكون لبحث الأصل أو الجوهر الذي صدر عنه العالم وتفسير التغيرات التي تتم على مسرحه إلا إنه لا يمكن أن يصدق عليهم أنهم أصحاب فلسفة مادية صريحة. فالذين بحثوا منهم أصل الكون في مادة واحدة كانوا ينظرون إلى هذه المادة على أنها مادة حية هم (طاليس - انكسيمانس - هيراقليطس). والذين قالوا بالعناصر الأربعة مجتمعة لجأوا إلى مبادئ وجدانية لتفسير التغير (أنبادوقليس). ورأينا بعض هؤلاء الفلاسفة يتحدث عن المبادئ الرياضية على أنها أصل الكون (الفيثاغوريون). والبعض الآخر يوحد بين الفكر والوجود لأن الثاني به نفس أصل خصائص الأول من ثبات و يقين (الإيليون). ورأينا أنكسيمانس يتحدث عن الأبيرون أو اللامتناهي، وأنكساجوراس يتحدث عن العقل ويصفه بالألوهية وبالحياة، وكل هذه التوجهات عند هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين لا تجعل حديثهم عن الطبيعة حديثا ماديا صرفا.

أما الفيلسوف ديمقريطس (وهو من هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين) فهو الذي يصدق عليه فعلا أنه صاحب فلسفة مادية صرفة. فالمادة عنده مكونة ذرات صغيرة، عددها لا محدود، تتحرك من ذاتها حركة تلقائية، ولا وجود لمحرك خارجي لها ولا للكون بأسره. وجميع التغيرات التي تطرأ على المادة كمية. وعندما يتحدث «ديمقريطس» عن النفس باعتبارها مبدأ الحياة والحركة، فإن النفس عنده تبدو جسمانية صرفة وهي جزء من المادة. وفي داخل الإنسان تنتشر النفس في جميع أجزاء بدنه.

وسنرى فيما بعد أثر القول بالذرات فى الفلسفات الحديثة والمعاصرة وبالمثل سنجد أن كل تلك الوقفات التى وقفها الفلاسفة الطبيعيون الأوائل حول الكون والعناصر المكونة له ومحاولتهم تفسير التغيرات التى تتم فيه وتوقفهم حول الرياضيات والوجود واللاوجود والحياة والموت وعالم الفكر وعالم المادة وانقسامات هذه المادة إلى أجزاء تتجزأ إلى مالا نهاية وإلى أجزاء صغيرة لا تنقسم، أقول إننا سنجد فيما بعد أن كل هذه الوقفات على الرغم من أنها قد تبدو للبعض منا على أنها وقفات ساذجة، إلا إنها كانت الأساس فى تطور الفكر الغربى والخميرة التى دخلت فى بناء الحياة الفكرية الغربية كلها، وفى التصورات التى قدمها الفلاسفة الغربيون حول العلاقة بين الإنسان والعالم.

لكن ينبغى أن لا يغيب عن بالنا لحظة واحدة أن وقفات هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين السابقين على سقراط كانت كلها وقفات حول الظواهر الكونية لا حول المعانى أو المفاهيم. وبعبارة أخرى كانت وقفاتهم حول الظواهر أو المشاهدات التى شاهدها فى الطبيعة أو الكون ولم تكن وقفات حول تصوراتها الذهنية، وإلا ما استحقوا الصفة التى دمغوا بها وهى أنهم فلاسفة طبيعيون. وهى صفة تتفق مع بدايتهم المتواضعة للحياة الفكرية العامة. أما الوقفة مع التصورات فلم تبدأ إلا على يد سقراط.
